العلمية الحديثة المتوالية فى قوانين الوراثة قد عدلت من نظرية داروين كما قال بها ، إلا أنها فى عمومها لاتزال متماسكة »(١)

ثم يبلغ الباحث السابق أوج التعصب الممقوت ، حين يعلن إصراره على الاعتقاد بنظرية التطور الداروينى : بقوله فى شأن حفريتين عثر عليهما بعض المنقبين (لقد كنا نتحدث عن قرد الجنوب أو إنسان الجنوب فهل كان نوعاً واحداً ؟ بيد أنه كان جنسا قائماً بذاته ، يتفرع بدوره إلى نوعين ، هما النوع الذى أطلق عليه اسم قرد الجنوب : والنوع الذى ظفر باسم أفضل هو شبيه البشر أو قريب من البشر . والغريب أن النوع الأول الذى وسم بالقردية ، هو أقرب الأنواع إلينا ، ويصلح أن يكون جداً لنا . . أما النوع الثانى فهو مخلوق أكثر تخصصاً فى صفاته ، وأضخم حجما ، وربما كان تطوراً جانبيا موازيا لتطور الإنسان الحالى (٢)

أقول : ومن منطوق هذين النقلين ، بل من القراءة الأولية لهما يجد الإنسان نفسه أمام باحث متفيقه يرى أن الحفرية المكتشفة ، لو كانت قردا ، فهى فى ميزانه المختل صالحة لاعتبارها جداً للإنسان وأصلا له انحدر منه

أما لو كانت الحفرية السابقة لسكان قريب الشبه بالإنسان — فهى فى قياسه المعوج — ليست صالحة للاعتبار السابق ، إذ أنها تمثل مرحلة جانبية هامشية للتطور الإنسانى ليس إلا !!

وإلى هنا يبدو لنا كيف بلغ الماديون فى سلم تعصبهم الدرجة التى لاتسمح بزيادة لمستزيد .

---

(١) كتاب أصل الإنسان للدكتور محمد غلاب ص ١٦

(٢) المرجع السابق ٩٧

نظرية التطور الداروينى :

ليس جديداً أن نخبر بانشقاق الماديين على أنفسهم طرائق قدداً ، واختلاف مناهجهم إلى مدارس شتى ، بيد أنهم وإن افترقوا واختلفوا يجتمعون على قاعدتهم الأساسية القائلة « أن الحياة مادة ، وأن الوعى انعكاس للوجود »[1] ، وإذا كان المجال يضيق عن تناول آراء المدارس المادية[2] فى هذا المقام التمهيدى ، فسأقتصر على تناول دعوى التطور الداروينى ، تنفيذاً لما ألزمت به نفسى من جانب ، ولخطورة هذه الدعوى على أذهان العوام وأشباه المثقفين من جانب آخر .

نشأة الإنسان فى تصور التطور الداروينى

بعد قراءات عديدة فيما كتب حـــول النشوء والارتقاء فى تصور التطور الداروينى ، وبعد تحليل دقيق لما صاغه أتباع هذا التصور من

---

(١) كتاب : « اللينينية ومعركة الأفكار » تأليف الينا موردجنيسكايا ص ٣١ .

(٢) ومن أبرز هذه المدارس المادية :

ـ المدرسة الداروينية : التى تلحق الإنسان بعالم الحيوان .

ـ المدرسة الفرويدية : القائلة بأن الكيان الحقيقى للإنسان الطاقة البهيمية البحتة .

ـ المدرسة التجريبية : القائـــلة بأن الكيان الحقيقى للإنسان هو مانعرفه عن طريق التجربة التى مصدرها الحواس .

ـ المدرسة الميكانيكية : القائلة بأن الإنسان آلة تحكمه نفس الضرورة التى تحرك الحياة بأكملها أى لا إرادة حتى حيوانية للإنسان .

فروض وافتراضات ، أستطيع ان ألخص نشأة الانسان لدى الداروينيين فيما يلى .

إن نشأة الإنسان يحوط بها الاستقلال من جانب ، والتبعية من جانب آخر . والاستقلال هنا استقلال عن الخالق ، والتبعية هنا تبعية لنوع آخر من الكائنات سابق على الإنسان فى الوجود .

لقد نشأ الانسان — فى ميزان التطور الداروينى — وفى أحسن تصورات أتباعه وافتراضاتهم نشأ من جنس الحيوان ، وذلك نتيجة لسلسلة طويلة من عمليات حيوية فى أنواع الحيوانات البدائية وتحت ظروف الطبيعة القاهرة والمساعدة على الترقى التدريجى لبعض أنواع الحيوانات دون أى تدخل من الخالق ويتمخض عن هذا كله ولادة الإنسان المعروف بلحمه وشحمه وفكره وعقله . يقول داروين « إنى بعد إذ أنفقت ما أنفقت من الوقت فى البحث .. لا يمر بى خلجة من الشك فى أن ما كنت أقطع به ، كما قطع الطبيعيون من القول بأن كل نوع من الأنواع قد خلق مستقلا بذاته خطأ محض »[1] .

ويشرح التطورى وليم هاولز ما أجمله داروين ، فيقول « كان لابد لنا أن نمر بالطور الحيوانى قبل أن نصل إلى حالة الإنسانية[2] » .

أقول : إنه فى ضوء هذه النقول ، يتبين لنا أن الإنسان فى نشأته التطورية وفى أحسن تصوراتها — لا يعدو أن يكون تلك الآلة الحية التى كانت فى بداية أمرها دوداً يدب ، ثم أصبحت بفعل العوامل المختلفة المتمثلة

(١) أصل الأنواع جـ ١ صـ ٧٢

(٢) كتاب « ما وراء التاريخ صـ ١٩ . واجع كتيب التطور من سلسلة كتابك . إصدار دار المعارف ص ٢٤

فى الانتخاب الطبيعى القائم على تنازع البقاء، والبقاء للأصلح . .»[1] ، إنسانا ناطقا ذا إحساس وشعور .

هذا ما يتعلق بالتصور الحسن فى نشأة الانسان لدى التطوريين الداروينيين ، أما ما يتعلق بالتصور المقابل له ، فهو التصور الذى يستحق تعبير القبح ، اذ أنه يرجع نشأة الإنسان إلى القردة ، كما سبقت الإشارة بذلك ، وكما نطقت ألسنة التطوريين ، وكتبت أقلام الداروينيين ، ومن بينهم : لا مارك «التطورى القائل فى تصريح صريح ، إن الانسان نشأ من القردة[2] والتطورى « توماس هكسلى » القائل : نحن لا نغلو فى القول بتسلسل الإنسان من القرد »[3] .

وقد سرت عدوى التطوريين فى تصورها القبيح إلى أذهان بعض الباحثين المعاصرين ممن يسمون — وللأسف — بأسماء المسلمين ، ففى بداية بحث لأحدهم عن أصل الانسان ، يقول « إن الانسان حيوان تربطه بأقرب الأحياء إليه رابطة بيولوجيه ، ومن ثم كان هو والقردة العليا أعضاء فى عائلة واحدة هى عائلة البشريات »[4] ، ثم يصرح الباحث فى نهاية بحثه بالنتيجة التى وصل إليها ، فيقول عن نشأة الانسان «أنه متطور من جد أعلى كان هو أيضا جدا القردة ..»[5] .

---

(١) الأصلح هنا هو الأكثر قدرة على التكيف مع البيئة

(٢) نقلا عن رسالة الدكتوراه التى أعدها د/محمود عثمان وموضوعها « الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه » صـ١٢٥

(٣) المرجع السابق صـ ١٢٦

(٤) كتاب أصل الانسان د/ محمد غلاب صـ١١

(٥) الكتاب السابق صـ ١٢٨

أقول : إنه فى ضوء هذه النقول المتعلقة بالتصور التطورى القبيح، والمتعلقة بالتصور التطورى السابق عليه ، يتبين لنا أن نشأة الانسان — فى كلا التصورين لا تخرج عن تطور لحق بعض أنواع الحيوانات على سبيل الصدفة والعفوية ، الأمر الذى يجعل القول بالخالق أمرا مستبعدا وغير وارد على أذهان التطوريين إطلاقا ، حتى لو جهلوا كيفية النشأة للإنسان الأول ، ويتأكد لنا هذا المعنى حين يعلن البروفيسر بيتسون قوله « إننا بالرغم من إيماننا بالنشوء ، فاننا لا نعلم كيف حدث[1] .

وأرى أن عدم العلم هنا ، ما هو إلا ترجمة عن الجحود بالخلق الإلهى المباشر للإنسان وما يترتب على ذلك من معالم النشأة الانسانية كما بينها الإسلام .

هذا ولا أريد أن أبخس التطوريين شيئا من أمرهم ، تطبيقا لما يقرره القرآن الكريم ، فى سورة الشعراء ، حين يدعو على لسان شعيب عليه السلام إلى .. « ولا تبخسوا الناس أشياءهم »[2] .

واستجابة لهذه الدعوة ، ألفت النظر ، الى أن التطوريين ، وإن أجمعوا الرأى على عدم استقلال نشأة الانسان ، وعلى تبعيتها لجنس الحيوان ، إلا أنهم اختلفوا حول فكرة وجود الخالق إثباتا ونفيا ، ولو أن اختلافهم هذا ، لا يغير شيئا من تصورهم لنشأة الانسان ، لأن القائلين منهم بوجود الخالق للكون ابتداءا ، ينكرون له أى تأثير على المخلوقات بعد إيجاد أصل الكون ، وبث روح الحياة فى نبتته الأولى .. ومن هنا يقول داروين « إن العلم لا يخلق نظاما ، ولا يبدع حكمة ، ذلك أكبر برهان عندى

---

(١) نقلا عن كتيب « مذهب النشوء والارتقاء فى مواجهة الدين » تأليف منيره الغاياتى ص ٧

(٢) سورة الشعراء : ١٨٣

على وجود الله ، ولكن لم أبحث من جهة أخرى إن كان هذا البرهان ذا قيمة »[1] .

ولعل داروين يقصد بالقيمة هنا ، تأثير الإله الخالق للكون ابتداءا فى إيجاد بقية أنواع الكائنات ، وهذا هو المعنى الذى لاحظه الباحثون فيما نقلوه عن داروين إذ يقول «إن الأنواع كلها مشتقة من أصل واحد، أو أصول محدودة ، نفخ فيها الخالق روح الحياة فهو « أى داروين » يعتقد بأنها استمدت الحياة من خالق أو جدها ثم أخذت فى التنوع على مقتضى نظريته بالانتخاب الطبيعى »[2] .

ونفهم من كل ما سبق: أن الطبيعة عند الماديين ابتداءا ،وعند داروين انتهاءا هى التى تشرف على الحياة فى الأرض ، وهى التى تتدخل فى عملية النشوء والارتقاء وتديرها وأنها هى التى أنشأت الانسان ، ومنحته أعضاء جسمه وغرائز نفسه وجواهر كيانه الروحى.. وكفى بهذا إيضاحا لتصوير نشأة الانسان فى ميزان التطور الداروينى حيث لا يعدوا الإنسان فى نشأته أن يكون نتاجا لعمليات الانتخاب الطبيعى فى بعض أنواع الحيوانات ، أو فى جنسها ، الأمر الذى لا يدع مجالا للخالقية ، وما يترتب عليها من أشياء تتعلق بنشأة الانسان فى ضوئها .

تكوين الانسان فى تصور التطور الداروينى :

يأبت التطوريون للإنسان ما يلبسونه من ازدواج تركيبه .. جسما وروحا . بدنا ونفسا . مثلما يثبتون ذلك لأى حيوان من الحيوانات، وبهذا لاينفرد الانسان لدى التطوريين فى تكوينه عن الحيوان ، كما لم ينفرد

---

(١) أصل الانواع جـ ١ صـ ٢٦

(٢) على أطلال المذهب المادى للاستاذ/ فريد وجدى جـ ١ صـ ٦١

عنه فى نشأته ووجوده من قبل. وهذا هو ما يجزم به التطورى «وليم هاولز» حين يقول: «نحن من الرئيسيات وإن كنا أقرب من ناحية التكوين الجسمى ومن ناحية السلالة الى القردة العليا منا الى تلك السعادين»[1]، أى أن الانسان لا يعدو — فى تكوينه — أن يكون امتداداً طبيعيا لحيوانات سابقة له فى سلم الصعود، مضاف إليه قدر من التطور، وهو القدر الذى نتج من الظروف التى صادفت الجد الأعلى للانسان، فأثرت فيه، وأنتجت منه الكائن البشرى على مر الأيام[2].

والانسان بهذا التصور الداروينى، يصبح مكونا من :—

١ — مادية يتضاءل الجانب الروحى بجوارها، ويبقى الاعتراف به، كالاعتراف بنظيره فى المجاوات من البهائم.

٢ — حيوانية يتحقق بها التشابه المطلق فى الكيان الانسانى، بالكيان الحيوانى، وذلك من حيث احتواء كل منهما على البدن والنفس، ومساواتهما فى فكرة القهر الخارجى التى تجعل الانسان عبدا لأى عامل اقتصادى أو اجتماعى أو نفسى وترفض فى الوقت نفسه، عبوديته الفطرية لله سبحانه.

وأرى أن فى هذا اعلانا صريحا لتجريد كيان الانسان من عنصر الإرادة المميزة لبشريته لا على سبيل الحقيقة، بل على سبيل التمثيل والمجاز، حيث إن الارادة فى ميزان التطوريين تعمل لخدمة الكيان الخارجى للإنسان، الأمر الذى يورثه عجزا تاما، وضعفا كليا أمام غرائزه الفطرية.

---

(١) كتاب «ما وراء التاريخ» صـ٥٥

(٢) راجع الانسان بين المادية والإسلام للأستاذ محمد قطب صـ ٢٥

• جملة القول فى نشأة الإنسان وتكوينه فى ميزان التطور الداروينى:

ينتهى الداروينيون إلى أن الانسان كائن لا يتفرد بشىء — فى نشأته وتكوينه — عن بقية الكائنات الحية من عالم الحيوان ، ومن ثم فالإنسان خاضع لقانون التطور الذى يسود عالم الحياة على الإطلاق .

ومن هنا ينتفى الاستقلال عن نشأة الانسان وتكوينه، كما ينتفى قصر البشرية والآدمية عليه وحده ،إذ أنها صفة تدور بينه وبين جنس الحيوان أو نوع من أنواعه .

علاقة التطور بنشأة الإنسان وتكوينه :

يطيب لى قبل أن أتناول حقيقة العلاقة بين التطور وبين الإنسان ، أن أقول : —

لعل القارىء لتصور النشأة الإنسانية وتكوين الإنسان لدى التطوريين ، قد لمس بوضوح ، الحيدة العلمية من خلال ما سبق عرضه بإيجاز،إذ لم أتدخل فى تقريراتهم بشىء من الزيادة أو النقص ،ولم أتجاوز فى استنتاجاتى مفهوم عباراتهم ومدلولها ، وهى استنتاجات أيدتها بأقوال علماء المسلمين ، بهدف التبيين والتوضيح ، الأمر الذى يبين بعد الفارق بين تصور التطور ورؤية الإسلام فى القضيتين المعروضتين على بساط البحث ، ألا وهما : نشأة الإنسان وتكوينه .

وتتميما للفائدة أرى على لزاماً أن أقوم بتحليل موجز لحركة التطور وبيان وجه القصور فيها :

٢٢ — أصل الإنسان . د/محمد السيد غلاب — طباعة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧١ م

٢٣ — التفسير الاشتراكى للتاريخ. مختارات من فردريك انجلز وكارل ماركس . تعريب . د / راشد البراوى — الناشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٧ م

٢٤ — ما وراء التاريخ . وليام هاولز . ترجمة د/ أحمد أبو زيد . دار نهضة مصر للطبع والنشر سنة ١٩٦٥ م